**المفاهيم السوسيولوجية عند بيير بورديو**

تتميز السوسيولوجيا عند **بيير بورديو** بالطابع العلمي المنطقي، والابتعاد عما هو سياسي وإيديولوجي، ودراسة العنف الرمزي وفق مقاربا ت علمية دقيقة وصارمة، دون إدخال ما هو شخصي وسياسي في البحث العلمي. ويعني هذا أن **بورديو** يدعو إلى تأسيس سوسيولوجيا علمية. وفي هذا الصدد، يقول:" لا يمكن لعلم الاجتماع أن يقوم إلا إذا رفض الطلب الاجتماعي الذي يلتمس وسائل لإضفاء المشروعية وأدوات للتحريض ، وعالم الاجتماع ، ليس له مهمة يسخر لها ولا غاية انتدب من أجلها، اللهم تلك التي يفرضها عليه منطق بحثه."

هذا، وقد كرس **بورديو** جل جهوده لإرساء سوسيولوجيا النظام التعليمي، وسوسيولوجيا الميدان الثقافي أو سوسيولوجيا المثقفين، وفهم العنف الرمزي، وتحليل الصراع المجتمعي في علاقته بعلاقات القوى والآليات المتحكمة في تطورها، وفق رؤية علمية موضوعية..

**المفاهيم السوسيولوجية :**

وظف **بيير بورديو** مجموعة من المفاهيم السوسيولوجية في أبحاثه ودراساته وكتبه، وقد كان لها تأثير في كثير من النظريات والمدارس السوسيولوجية المعاصرة، على الرغم من تعقيدها وغموضها. ومن بين هذه المفاهيم نذكر ما يلي:

**1- العنف الرمزي:**

من المعلوم أن العنف نوعان: عنف فيزيائي يكون بإلحاق الضرر بالآخرين جسديا وماديا وعضويا، وعنف رمزي مهذب يكون بواسطة اللغة، والهيمنة، والإيديولوجيات السائدة، والأفكار المتداولة. ويكون أيضا عن طريق السب، والقذف، والشتم، والدين، والإعلام، والعنف الذهني. لذا، يعرفه **بيير بورديو** بقوله:" العنف الرمزي هو عبارة عن عنف لطيف وعذب، وغير محسوس، وهو غير مرئي بالنسبة لضحاياه أنفسهم، وهو عنف يمارس عبر الطرائق والوسائل الرمزية الخالصة. أي: عبر التواصل، وتلقين المعرفة، وعلى وجه الخصوص عبر عملية التعرف والاعتراف، أو على الحدود القصوى للمشاعر والحميميات."

وعليه، يرتبط العنف الرمزي بالسلطة والهيمنة والحقل المجتمعي. بمعنى أن الدولة تمارس، عبر مجموعة من المؤسسات الرسمية والشرعية ( الإعلام، والدين، والتربية، والفن، والصحافة... ) ، عنفا رمزيا ضد الأفراد والجماعات. ويعني هذا أن المجتمع الحاكم والمسيطر يمارس عنفا رمزيا (*violence symbolique*) ضد الأفراد، وهذا العنف أكثر خطورة من العنف المادي الجسدي.

**2- مفهوم الهابيتوس:**

وقد استعمل مصطلح الهابيتوس أو الآبيتوس (Habitus) قديما عند الفلاسفة اليونانيين بمفهوم (hexis)، وخاصة عند أفلاطون وسقراط، وأرسطو؛ ومن بعدهم هيغل، وهوسرل، وماكس فيبر، وإميل دوركايم... بيد أن مصطلح (hexis) قد استبدل، إبان العصور الوسطى، بمصطلح الهابيتوس(habitus) للدلالة على الحالة أو الوضعية أو طريقة العيش.

وقد ركز بورديو على بنية الهابيتوس الداخلية، ومكوناته، ووظيفته. فمن حيث البنية، يتكون الهابيتوس من مجموعة من الميول، والتصورات، والمعتقدات، والإدراكات، ورؤى العالم، ومبادئ التصنيف. ومن ثم، يساعد الهابيتوس الذي يكتسبه الفرد في الأسرة والمدرسة على تمثل المجتمع واستيعابه بشكل جيد.

ويبدو أن مصطلح الهابيتوس مصطلح غامض ومعقد، إذ يقصد به **بيير بورديو** " بعض الخصال المترسخة في داخل عقول البشر وأجسادهم". ومن هنا، فالهابيتوس بمثابة مجموعة من الاستعدادات أو الملكات الدائمة التي يكون الفرد قد اكتسبها أو تطبع عليها عبر التنشئة الاجتماعية. وبالتالي، فالاستعدادات هي مجموعة من الميول والاتجاهات والمواقف المتعلقة بالتفكير والإدراك والإحساس، فيستبطنها الأفراد حسب ظروفهم الموضوعية لوجودهم، وتوظف هذه الاستعدادات بطريقة لاشعورية. وتتمثل هذه الاستعدادات المستضمرة في القيم والتصرفات والسلوكيات والمكتسبات المعرفية والذهنية. ويعني هذا أن الهابيتوس عبارة عن مجموعة من البنى المعرفية والإدراكية المستدمجة، ويتم إنتاجها في بيئة اجتماعية محددة. ويعاد إنتاج هذه البيئة من خلال قدرة الهابيتوس على التوليد.

ومن هنا، ليس الهابيتوس مجرد تمثل أو إدماج عاد وبسيط، ينبني على ممارسات تقليدية أساسها التكرار والتنميط والتطبيق الآلي، بل هو إدماج إبداعي يتجاوز المماثلة إلى الاستيعاب ومواجهة وضعيات جديدة. كما أن الهابيتوس هو بمثابة بنيات خاضعة لعامل التكيف والتـأقلم مع العالم المجتمعي الموضوعي. وفي الوقت نفسه، هو بمثابة أفعال محركة لبنية المجتمع، أو بمثابة ممارسات جديدة تهدف إلى حل مشكلات الواقع الموضوعي، وتجاوز حتمياته الجبرية. أي: يتضمن الهابيتوس التطبع بالمجتمع من جهة، والتحكم فيه بالفعل الفردي الإبداعي من جهة أخرى.

ويعتبر الهابيتوس منتج السلوكيات والتصرفات والأفكار والعواطف والقيم التي يمتلكها الفرد أثناء التفاعل مع موقف مجمتعي معين.أي: هو بماثة موجه لماهو فكري وذهني، وما هو وجداني وقيمي، وما هو فعلي وسلوكي. أما موقعه فهو الوسط بين العلاقات المجتمعية الموضوعية والسلوكيات الفردية، أو هو حلقة وصل بين بنية المجتمع والفعل الفردي، أو هو بمثابة استبطان للممارسات الفردية والشروط الموضوعية. وعلى العموم، يتكون الهابيتوس من شقوق ثنائية: فردي ومجتمعي، ذاتي وموضوعي، وفاعل ومنفعل.

ويرتبط الهابيتوس برأسمال معين، كالرأسمال المادي، أو الرأسمال الثقافي، أو الرأسمال الاجتماعي، أو الرأسمال الرمزي. وليس الصراع الطبقي هو الوحيد الذي يتحكم في الطبقات الاجتماعية، بل يكون العنف الرمزي أيضا عاملا من عوامل الصراع وأشكاله.

ومن ثم، فلكل طبقة اجتماعية هابيتوس خاص، ورأسمال معين، وحقل معين، مثل: طبقة العمال، وطبقة المثقفين، وطبقة الفقراء، وطبقة الأغنياء... ويعني هذا أن الهابيتوس يرتبط من جهة بالفعل وبنية المجتمع. ومن جهة أخرى، يقترن بالرأسمال والتميز الجنسي أو الثقافي أو الاقتصادي أو المجتمعي...

**3- مفهوم الحقل :**

يرى **بيير بورديو** أن العالم المجتمعي، في مجتمعاتنا المعاصرة، مقسم إلى مجموعة من الحقول (Champs).بمعنى أن تقسيم العمل في مجتمعنا أوجد مجموعة من الحقول والفضاءات المجتمعية الفرعية، مثل: الحقل الفني، والحقل السياسي، والحقل الاقتصادي، والحقل الثقافي، والحقل التربوي، والحقل الرياضي، والحقل الديني...

ويتميز كل حقل فضائي باستقلالية نسبية عن المجتمع ككل ، وتتميز هذه الفضاءات بالتراتبية الطبقية والاجتماعية، وباشتداد الصراع الدينامي والتنافس الشديد بين الأفراد حول الامتيازات المادية والمعنوية، والصراع حول مواقع السلطة والهيمنة، حسب طبيعة الرأسمال الذي يملكه كل فرد داخل المجتمع. ويكون الصراع في كل حقل حول مصالح مشتركة أو مصالح خاصة بكل فرد على حدة. ويخضع الحقل لمجموعة من القواعد، مثل: الصراع المحتدم بين الجيل القديم والجيل الجديد. ومن ثم ، يخضع الحقل لمنطق التنافس والصراع والهيمنة والعيش المشترك.

**4- مفهوم الرأسمال :**

إذا كان كارل ماركس يرى أن أساس الصراع بين الطبقات الاجتماعية، ولاسيما بين البورجوازية والبروليتارية قوامه الرأسمال الاقتصادي، **فبيير بورديو**، على غرار ماكس فيبر، يرى أن الصراع لا يتخذ دائما طابعا اقتصاديا، فقد يكون صراعا ثقافيا. ومن ثم، فثمة رأسمالان مهمان في تحريك مجتمعاتنا المعاصرة هما: الرأسمال الثقافي والرأسمال الاقتصادي.

وبناء على ما سبق، فقد حدد **بيير بورديو** أربعة أنماط مختلفة من الرأسمال الذي يملكه الفاعل المجتمعي، وهي:

• **الرأسمال الاقتصادي** هو الذي يقيس موارد الفرد المادية والمالية، ويرصد ثرواته وممتلكاته، ويحدد دخله الشهري والسنوي.

• **الرأسمال الثقافي :** يقيس موارد الفرد الثقافية، مثل: الدبلومات والشهادات العلمية والمهنية، والمنتوج الثقافي من مقالات وكتب ودراسات وأعمال إبداعية وثقافية وفنية، وما يملكه من مهارات وكفاءات ومواهب وقدرات معرفية ومهنية وحرفية في مجال الثقافة.

• **الرأسمال الاجتماعي :** يقيس ما يملكه الفرد من علاقات اجتماعية ومعارف وصداقات، تعود إلى ذكائه الاجتماعي الذي يستثمره لربط مجموعة من صلا ت الرحم والقرابة والصداقة والزمالة.

• **الرأسمال الرمزي :** ويتضمن الرأسمال الاقتصادي، والرأسمال الثقافي، والرأسمال الاجتماعي، وبهذه الأنماط يتميز الفرد مجتمعيا عن باقي الأفراد الآخرين.

وقد أضاف **بيير بورديو** رأسمالا آخر في كتابه (أسئلة السوسيولوجيا)، سماه **بالرأسمال اللغوي** ؛ لأن بهذا الرأسمال تستطيع جماعة ما أن تفرض نفسها وإنيتها ووجودها. وبالتالي، تستفيد من السلطة ومن امتيازات مادية ومالية وثقافية ورمزية. وأكثر من هذا، فمن يمتلك الرأسمال اللغوي الأجنبي في الدول العربية، فإنه يستطيع أن يحظى بمكانة ثقافية واقتصادية كبرى في المجتمع.

بيد أن **بورديو** يغض الطرف عن رأسمال آخر أكثر أهمية، في مجتمعاتنا الإسلامية، من الأنماط الخمسة المذكورة وهو الرأسمال القيمي أو الديني، فهو الرأسمال المهم للإنسان، إذا تملكه الإنسان ربح الدنيا والآخرة. وبالتالي، فأحسن تجارة ينبغي أن يسعى إليها الفرد جاهدا هي التجارة مع الله في مجال العبادة والتدين والإحسان وفعل الخير.

وعليه، يستطيع الفرد بهذه الموارد الرأسمالية المختلفة (الاقتصادية، والثقافية، والاجتماعية، والثقافية، واللغوية) أن يحقق أرباحا ومنافع مجتمعية، ولاسيما أن الرأسمالين: الاقتصادي والثقافي هما أكثر أهمية في مجتمعاتنا المعاصرة حسب **بيير بورديو** ، وهما اللذان يشكلان بنية المجتمع، ويتحكمان في أفعال الأفراد، ويجعل كل حقل مجالي فضاء للتنافس والصراع والتطاحن الاجتماعي والطبقي.

**وخلاصة القول** ، يتبين لنا، بأن **بيير بورديو** من أهم السوسيولوجيين الملتزمين بالتصور الماركسي في نقد السياسة الرأسمالية. وقد انشغل بتقديم نظرية سوسيولوجية للمجتمع في ضوء المقاربة الصراعية. ومن جهة أخرى، أعطى أهمية كبرى لدراسة الطبقات المجتمعية، وتحليل التراتبية الطبقية والاجتماعية، واستجلاء دور الثقافة في هذا الصراع المجتمعي والطبقي، مع التركيز على المدرسة باعتبارها فضاء للتنافس والتطاحن والصراع واللامساواة الاجتماعية والطبقية.

ومن ثم، فقد اتخذ **بيير بورديو** السوسيولوجيا أداة لنقد العالم الليبرالي الجديد، وفضح مؤسساته الإيديولوجية القائمة على الهيمنة والسيطرة وإخضاع الآخرين، على أساس أن مؤسسات الدولة الشرعية، مثل: المدرسة، والإعلام، والصحافة، والدين، تمارس نوعا من العنف الرمزي تجاه الآخرين.

علاوة على ذلك، فقد تمثل **بيير بورديو** المنهجية البنيوية التكوينية ، من خلال الجمع بين الفعل وبنية المجتمع، وتجاوز مجموعة من الثنائيات التي أخضعت منهجيا للهابيتوس. ومن ثم، فقد وظف **بيير بورديو** مجموعة من المفاهيم والمصطلحات السوسيولوجية ، ما زالت في حاجة إلى سبر، وتوضيح، وتنقيح، وتأويل، ولاسيما الهابيتوس، والحقل، والعنف الرمزي ، والتميز، وغيرها من المفاهيم الإشكالية الأخرى.